مقدمة

فـــــي الســـــيرة النبـــــوية

أ٠د/ منيع عبد الحليم محمود
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
وعميد كلية أصول الدين ــ القاهرة

*** إلى مولاي الإمام الحسين بن علي .
*** رمز الجهاد لكل العصور .
*** أهدي هذا البحث .

* * *

دكتور/ منيع عبد الحليم محمود

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ــ وبعد :

إذا كان لنا نقدم لهذا البحث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلن نجد خيرا من أن نوضح لقرائنا معنى النبوة وحاجة البشر إليها • إن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تغني بنفسها عن أي تقديم لها ولكن لتوضيح فكرة النبوة عند قرائنا رأينا وجوب كتابة هذه المقدمة لتحديد معنى النبوة .

* * *

تحديد معنى النبوة

إن التحديد اللغوي لمعنى النبوة مأخوذ من الأنباء ففيه معنى الإخبار ، لكنه في عامة استعمالاته خاص بالأمور الغائبة المختصة دون المشاهدة المشتركة أما إذا كان بعض الناس يكون المعنى عندهم (المعلى الرفيع المنزلة) على أساس- فتح النون وسكون الباء بالنسبة للفظ النبوة، فإن هذا المعنى لازم لمعنى الإنباء والإخبار ، فإن لفظ العلو ورفعة المنزلة قد يوصف بها من ليس بنبي فلا يدل على خصوص النبوة .

على أنه إذا كان هذا هو التحديد اللفظي واللغوي لمعنى النبوة، فإن أغلب تحديدات معنى النبوة تدور حول هذا ولا تزيد عنه إلا قليلا :

فإن المشهور في عرف الشرع- كما يقول الإمام الألوسي- :

(أن النبي من أوحي إليه سواء أمر بالتبليغ أم لا)

أما صاحب شرح المقاصد على المواقف فيقول : (أن النبوة هو كون الإنسان مبعوثا من الحق إلى الخلق) .

أما الإمام محمد عبده فإنه يتكلم عن هـدفها دون تحديـدها: يقول:

النبوة تحدد ما ينبغي أن يلحظ في جانب واجب الوجود مـن الصفات ، وما يحتاج إليه البشر كافة من ذلك ، وتشير إلى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم في مقدمات عرفانهم ، لكنهـا لا تخدم إلا ما فيه الكفاية للعامة .

ولكن التعريف الذي نرتضيه هو التعريف القرآنـي للنبـوة ، وتبدو لنا أولى الآيات التي تحدد لنا المعنى المراد في قوله تعـالى : (إن الله اصطفى آدم ونوحا، وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين)

ويقول : (واتخذ الله إبراهيم خليلا)

ويقول : (وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني) .

تدلنا هذه الآيات على أن الله يصطفي الأنبياء ويجتبيهم لنفسه، ويرسم حياتهم قبل ميلادهم ، فيختار لهم النسب الشريف الذي يميزهم عن غيرهم ويصنعهم على عينه، وليس هناك دليل على ما ذكرنا من قبل أكثر من قول الله سبحانه وتعالى عن سيدنا عيسى عليه السـلام قبل أن يولد : (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منـه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين) (ولنجعله آيـة للنـاس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا).

ثم نأتي للجزء الثاني من المنهج القرآني لتحديد النبوة وهـو حالة تلقي الوحي ، فبعد أن يصطفي الله رسله ويربيهم يفاجئهم بتلقي الوحي يقول الله تعالى: (وهل أتاك حديث موسى؟ إذ رأى نارا فقـال لأهله: امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما آتاها نودي يا موسى : إني أنا ربك فاخلع نعليك ، إنـك بالوادي المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ، إن الساعة آتية أكاد أخفيهـا لتجزى كل نفس بما تسعى، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبـع هواه فتردى).

ويفاجئ الرسول صلى الله عليه وسلم الوحي وهو في الغار.

(وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) .

(نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين).

هذا هو المنهج القرآني لتعريف النبوة ، والذي يمثل لنا التعريف الصحيح لها باعتباره النص الذي آتانا من عند الله سبحانه وتعالى . ولنا أن نوجزه فنقول: (النبوة سفارة بين الله وخلقه يقصد بها صلاح أمرهم، وهبة من الله سبحانه وتعالى يمنحها لمن يصطفيهم من عباده بعد أن يربيهم التربية الصحيحة التي بها يكونون مؤهلين لتلقي الوحي من الله سبحانه وتعالى في أي وقت).

الفرق بين النبي والرسول : يقول الإمام ابن تيمية : (النبي هو الذي ينبئه الله ، وهو ينبئ بما أنبأه الله به ، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول ، أما إذا كان يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول).

ونحن نضيف إلى كلام الإمام ابن تيمية أن مهمة النبي تتناول التبليغ عن الله عز وجل ، في أمور تتعلق بمصلحة المؤمنين ، والفصل في قضاياهم العامة والخاصة كما قال تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار).

كما تتناول الإشراف على سياسة الدولة وتولية المناصب من لدن الله عز وجل ، كما قال تعالى: (ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله) .

وكذلك تتناول التشريع في مسائل جزئية فيها صفة التشريع المؤقت ، كما قال تعالى على لسان ذلك النبي : (إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني) .

أما مهمة الرسول فهي شاملة لكل التشريعات القديمة أو الجديدة، على أن تخصيص الرسول بإنزال كتاب جديد عليه قضية لم

يقم عليها دليل ونحن نؤمن بأن جميع الأنبياء والرسل لابد أن يكون معهم كتاب يكون دستورا للشريعة التي يحكمون بها ، قال تعالى:

(كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه).

حاجة البشر إلى النبوة :

إننا إذا نظرنا إلى النبوة في جوهرها نجد أنها تتمثل في الهداية الكاملة للبشر ، الهداية في العقيدة والهداية في التشريع والهداية في الأخلاق .

إن العقل الإنساني مهما بلغ به التقدم والرقي لا يمكن له الوصول إلى الهداية الكاملة الآتية له من الوحي الإلهي المعصوم ولا يكاد يبلغ هذه الدرجة العظيمة ، ويكفينا نظرة متأملة إلى القرآن لتدلنا على مقدار قيمة الوحي الآتي من عند الله سبحانه وتعالى .

لقد حاول كثير من الناس الوصول إلى الهداية عن طريق العقل، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل ، لقد حاول ذلك الفلاسفة ، وحاول ذلك علماء النفس والاجتماع ولكن كل تلك المحاولات لم تؤدي إلا إلى تضارب الآراء ، ولم يصل أحد منهم إلى الرأي القاطع في هذه المسألة، ولهذا كانت حاجة الإنسانية إلى الوحي الإلهي المعصوم الآتي إلينا عن طريق الرسل وبالله التوفيق .

* * *

دكتور/ منيع عبد الحليم محمود

إثبات النبوة عن طريق النظر
في سيرة الرسول قبل البعثة

بيئة الرسول صلى الله عليه وسلم :

كان المجتمع العربي في ذلك الوقت يموج بتيارات عديدة : من الأفكار والمذاهب والأديان، وجلها كان يبحث عن الحقيقة ، أو عن الطريق المعصوم الذي يؤدي إلى الحقيقة، لم يكن المجتمع كله وثنيا عاريا عن الأخلاق والقيم، صحيح أن الغالبية العظمى كانت وثنية في عقدتها منهارة في بعض تقاليدها، ولكن الدهماء لا يمثلون الأمة وإنما الذي يمثل الأمة هم الطائفة المفكرة فيه.

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : ومهما يكن من أمر العرب عند ظهور الدين المحمدي فإنهم لم يكونوا في سذاجة الجماعات الإنسانية الأولى من الناحية الفكرية التي تهمنا ، يدل على ذلك ما عرف من أديانهم ، وما روى من آثارهم الأدبية.

ويقول : وكان العرب عند ظهور الإسلام يتشبثون بأنواع من النظر العقلي تشبه أن تكون من أبحاث الفلسفة العلمية ، لاتصالها بما وراء الطبيعة ، من الألوهية وقدم العالم أو حدوثه والأرواح والملائكة والجن والبعث ونحو ذلك.

وإذا كانت هذه هي النظرة العامة لبيئة الرسول صلى الله عليه وسلم فإننا– وبتحديد أكثر دقة نجد الجزيرة العربية تموج بالأفكار التالية:

١- الحنفاء : وهؤلاء كانت أفكارهم وأشعارهم وسننهم وشرائعهم تؤمن بالله وباليوم الآخر إلا أنهم كانوا ينتظرون النبوة ومن أشهرهم زيد بن عمرو بن نفيل وأمية بن أبي الصلت وخالد بن سنان .

وأبرز نموذج فيهم هو زيد بن عمرو بن نفيل : كان يتجنب الأصنام واعتزلها وترك أكل الذبائح التي تذبح بيد المشركبن، ونهى

عن قتل الموءودة ، ولم يدخل في أي دين من اليهودية ولا النصرانية بل كان يعبد رب إبراهيم وكان يقول : (يا معشر قريش: والذي نفسي بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري).

ولكن هل كان يعرف الطريقة إلى عبادة الله يبدو أنه لم يكن كذلك فإنه كان يقول :

(اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك ولكن لا أعلمه ثم يسجد على راحلته) .

٢- الحكماء : وهؤلاء كانوا يشبهون حكماء اليونان حتى أن الشهرستاني يعرفهم بقوله : ومنهم ــ يقصد الفلاسفة ــ حكماء العرب وهم شرذمة قليلة) لأن أكثرهم حكمهم فلتات الطبع ، وخطرات الفكر، وربما قالوا بالنبوات.

يقول صاحب كتاب (التفكير الفلسفي في الإسلام) : " وحكماء العرب هؤلاء هم : العلماء الذين كان يرجح إليهم فيما يعرض من مشاكل وهم في الجملة: أعظم العرب ثقافة .

وكان مثلهم في الحكمة : مثل حكماء اليونان ، لقد آثرت عنهم الحكم القصيرة مثل : (مقتل الرجل بين فكيه) (من طلب شيئا وجده ، وإن لم يجده يوشك أن يقع قريبا منه) (الحرب مأيمة) (وأن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى) ومن أشهر هؤلاء الحكماء : أكثر بن صيفي بن رباح ، عبد المطلب بن هاشم ، قس بن ساعدة.

وكان عبد المطلب بن هاشم جد الرسول صلى الله عليه وسلم يمنع نكاح المحارم ، ويقطع يد السارق وينهى الناس عن قتل الموءودة.

أما قس بن ساعدة : فقد استدل على وجود الله وعلى أمر الآخرة، أنظر إليه يقول : كلا بل هو الله الواحد إله واحد ، ليس ولود ولا والد، أعاد وأبدى وإليه المآت غدا " .

٣- الحمس : جمع أحمس وهو الشديد الصلب في الدين والقتال .

وكانت قريش قد ابتدعت هذا الرأي ، لأنها اعتزت بجوارها للبيت لكونهم من بني إبراهيم وولاة البيت وساكنو مكة ، فرأوا أن لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات خلاف الآخرين من غير قبيلتهم.

وقد حرم الحمس على أنفسهم وعلى الحجيج أشياء ، وفرضوا أشياء أخرى فقالوا ـ كما يروي ابن إسحاق : لا ينبغي للحمس أن يأقطوا الأقط ، ولا يسلئوا السمن وهم في حرم ، ولا يدخلوا بيتا من شعر ولا يستظلوا إلا في بيوت الادم ما كانوا حرما.

وقالوا أيضا : لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم ، إذا جاءوا حجاجا أو عمارا ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم – من رجل أو امرأة –ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ، ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبدا.

الحالة الروحية للجزيرة العربية :

إذا كان ما ذكرناه آنفا يمثل الحالة الروحية التي وصل إليها المجتمع المكي، فإن الجزيرة العربية كانت تشهد تحولا روحيا كبيرا يدل على أمر سيظهر عما قريب، يقول ابن قتيبة في كتاب " المعارف" : (كانت النصرانية في ربيعة وغسان، وبعض قضاعة ، وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة .

وكانت المجوسية في تميم منهم زرارة ، وحاجب بن زرارة ، ومنهم الأقرع بن حابس ، كان مجوسيا ، ويذكر لسان العرب أنه كان هناك من يدين بالرجعة يقول : (والرجعة مذهب قوم في الجاهلية معروف عندهم) .

والغريب أن بعضهم كان قدريا والبعض الآخر مثبتا . يقول صاحب كتاب التفكير الفلسفي في الإسلام : كان الأعشى قدريا وكان لبيد مثبتا.

قال لبيد : من هداه الله سبل الخير اهتدى ـــ ناعم البال ومـــن شاء أضل.

وقال الأعشى : استأثر الله بالوفاء والعدل ، وولـــى الملامـــة الرجل " .

تلك هي الصورة العامة للفكر الروحي في البيئة المكية ومـــا حولها من الجزيرة العربية قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم : لقد كانت جميعها حالة من التأله والتزهد تبشر باقترابها من الخلاص على يد من يحملها على الجادة ، ويسير بها إلى الطريق المستقيم .

* * *

كرم أصله وطيب منبته

عندما نتتبع قصص الأنبياء في القـــرآن الكـــريم نـــرى : أن الأنبياء والرسل كانوا دائما من أشرف الأسر ، ومن أعلـــى القبائـــل نسبا ، وترى ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى : (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينـــا ضـــعيفا ولـــولا رهطـــك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز.

قال يا قومي : أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعلمون محيط) .

ومن هنا يتضح لنا المغزى العميق لسؤال هرقل لأبي ســـفيان بن حرب عن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليـــق هرقـــل على إجابة أبي سفيان بأنه من أوسطهم نسبا بقوله : (ســـألتك عـــن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها)

لقد كان من استدلال هرقل على صدق رسول الله صـــلى الله عليه وسلم هو كونه من أوسط قريش نسبا وكذلك الأنبيـــاء يكونـــون كذلك .

إن معنى كونه أوسطهم ما يكفل له الإعداد السليم في حياته ، ويجعله منيعا في قومه ، لا يردونه عند ظهور دعوته بـــدعوى مـــن الدعاوى التي تلقى على أراذل الناس وضعفائهم ، مثل دعاوي طلب الغنى أو الملك أو غيرها ، صحيح أنهم وجهوا نفس التهم للرســـول

صلى الله عليه وسلم ، ولكن كان مردودا عليها من قبل اتهامها نظرا لما عرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، من الشرف والرفعة والصدق والأمانة ، وعدم السفاهة ، ولعل أبرز مثال يوضح لنا ذلك هو موقف المشركين من المستضعفين من أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كبلال بن رباح ، وعمار بن ياسر وغيرهم ، والفرق بينه وبين مواقفهم من سيدنا أبي بكر الصديق ، وسيدنا عمر بن الخطاب ، من أصحاب العزة والمنعة ، فكيف لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المستضعف .

أما عن النسب الشريف فذلك ما تدلنا عليه الأحاديث النبوية التالية :

روى البخاري بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه) .

وروى الإمام مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم) .

أما ذلك النسب الذي بلغ الذروة من الشرف والرفعة فهو : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، بن هاشم بن عبد مناف ، بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة، بن الياس ، بن مضر بن نزار ، بن معد ، بن عدنان . ولا يختلف النسابون إلى عدنان ثم يختلفون فيما بعد .

* * * *

تبشير الكتب السماوية السابقة بالرسول

إذا كان لنا أن نتحدث عن تبشير الكتب السماوية به صلى الله عليه وسلم فإننا نذكر النصوص الإسلامية التي تحدثنا عن هذا باعتبارها أوثق المصادر التي يمكننا الاعتماد عليها في العصر الحديث .

يقول الله تعالى : (واختار موسى من قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء ، وتهدي من تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، واكتب لنا في هذه حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك، قال : عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون).

يقول القرطبي : الأمي وهو منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أميا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب ، قال تعالى :

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك)

وروى البخاري قال : حدثنا محمد بن سنان قال : حدثنا خديج قال حدثنا هلال بن عطاء بن يسار لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ؟ فقال : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن :

(يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، ونورا للأميين أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر، ولكن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلقا).

ويقول الله تعالى في سورة الصف (وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة

ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) .

يقول القرطبي : وأحمد اسم نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو اسم علم منقول من صفة لا من فعل فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل، فمعنى أحمد أي أحمد الحامدين، والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون لله ونبينا أكثرهم حمدا، وأما محمد فمنقول من صفة أيضا وهي في معنى محمود، ولكن المبالغة والتكرار، فالمحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة وهذا الاسم مطابق لمعناه والله سماه قبل أن يسمى به.

* * *

مولده الشريف

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم عن ذلك: أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة أخي عيسى ، ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين يرين - يروي أن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت حين وضعته نورا أضاءت له قصور الشام) .

هذا الحديث يدلنا دلالة قوية على أن ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم قد وقعت فيها من مظاهر الخصوص ما ينبئ عن أن المولود الشريف ليس بالفرد العادي ، أن أمه رأت حين وضعته نورا أضاءت له قصور الشام ، ويؤكد لنا الحديث أن أمهات الأنبياء يرين، فلا مانع من وجود بعض الخصوصية لدى أمهات النبيين .

وإذا كان الحديث الذي ذكرناه يهتم بخصوصيته صلى الله عليه وسلم حال ولادته اهتماما كبيرا ، وكذلك ما سنذكره من أحاديث، فلا أدري لماذا يحاول كثير من الكتاب إنكار ذلك ، إنكارا مستميتا أن رجلا يحمل مصير العالم لماذا نحاول أن نجعله دائما بشرا عاديا ؟ من الطبيعي أننا لا ننكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر ، ولكنه بشر يوحى إليه فهو إذن ليس بشرا عاديا ولكنه بشر يوحى إليه ولا مانع من ظهور كثير من البشارات منذ مولده

حتى مبعثه وإذا كان بعض الناس يقولون بأننا يجب عند ذكر دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ، أن نركز كل اهتمامنا على القرآن ولا داعي للاهتمام بحياة الداعية الشخصية ، أو بالمعجزات الحسية ، فإنهم في ذلك يخطئون ، فإن من أهم الأسباب التي تؤدي إلى الإيمان بالدعوة هو حال الداعية نفسه ، فإننا إذا لاحظنا حال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما اجتباه به ربه من نعمة ، ومن مظاهر الخصوصية ، لا يتأتي لأي فرد منا إلا أن يؤمن برسالته إيمانا مطلقا فحال الداعي وحال الدعوة لا ينفصلان على الإطلاق ولا يتناقضان، بل هما مترابطان لا ينفصلان يكمل كل منهما الآخر، ولن نذهب بعيدا في محاجاة هؤلاء الناس ، فإن ذلك ليس موضوع بحثنا، ويكفينا حجة : ما ذكرته الأحاديث مما يدل على الاهتمام بذلك .

أخرج الحاكم – وصححه البيهقي – عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك ، فقال: دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى ورأت أمي حين حملت كأنه خرج منها نور أضاءت له بصري من أرض الشام. وقلت : قوله حين حملت هي رؤيا نوم وقعت في الحمل، وأما ليلة الولادة فرأت ذلك رؤية عين ، كما روى ابن إسحاق، كانت آمنة تحدث أنها أتيت حين حملت فقيل لها : أنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، وآية ذلك أن يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام ، فإذا وقع فسميه محمدا. الحافظ جلال الدين السيوطي ــ الخصائص الكبرى .

وروى البيهقي بسنده عن ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما قال : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم مختونا مسرورا قال: فأعجب جده عبد المطلب وحظى عنده وقال : ليكونن لابني هذا شأن فكان ما كان.

وقد وردت لهذا الحديث عدة طرق.

* * *

لوائح الهداية ومظاهر الخصوصية حال رضاعه

إذا جئنا في حال رضاعه صلى الله عليه وسلم ، فإن كتب السيرة تروي لنا الكثير من الحوادث التي تدل على مظاهر الخصوصية فيه صلى الله عليه وسلم في تلك الفترة ، على أن أهم ما حدث في هذه الفترة في نظرنا هو حادث شق الصدر ، وقد حدث هذا الحادث في حياته صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، مرة في حال استرضاعه في بادية بني سعد ، والمرة الثانية : عندما كان في العاشرة من عمره ، والثالثة : عند وقوع الإسراء والمعراج ، والواقع أن حادث شق الصدر في نظرنا له هذه الأهمية لأنه يمثل الإعداد الدائم من الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، إنه استخراج حظ الشيطان من الدعوة الإسلامية ، فتكون طاهرة نقية ممتلأة إيمانا وحكمة ، ومملوءة رأفة ورحمة .

لقد ناقش كثير من الكتاب حادث شق الصدر من الوجهة الحسية وهل يصح وقوعه أم لا ؟ هل في الإمكان فتح قلب الرسول صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ وفي ذلك يقول الدكتور عبد الحليم محمود : ولا يغنينا هذا – لا في قليل ولا في كثير – أن نجارى الماديين في جدلهم فيما يتعلق بشق الصدر : فالأمر أسمى بكثير من المماراة في الشكل ، و الكيف ، والزمان ، والمكان.

والمغزى : أعمق من أن نتجاوزه إلى المماحكات التي تشعر بضعف الإيمان أكثر مما تشعر بنور اليقين .

إن الله سبحانه وتعالى ــ وقد شاءت إرادته منذ الأزل أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ــ أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل ، والإنسان يبدأ السير نحو الكمال بطهارة القلب وتصفية النفس والتوبة والإخلاص ، أو بتعبير آخر بشق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه وأرسل الله ملائكته فشقوا عن صدر الرسول صلى الله عليه وسلم واستخرجوا حظ الشيطان منه " .

والآن نبدأ بذكر الروايات المتعلقة بذلك :

يقول ابن إسحاق : حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا له : أخبرنا عن نفسك قال : نعم أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخي عيسى عليهما السلام ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا فى بهم لنا آتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجا فأضجعاني فشقا بطني ، ثم استخرجا قلبي، فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء ، فألقياها ، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه :

زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته، فوزنني بمائة فوزنتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته ، فوزنني بألف فوزنتهم ، فقال : دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم.

ويؤيد هذه الحادثة أيضا ما ثبت في صحيح مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء ، فقال : هذا حظ الشيطان ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لامه ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه- يعني ظنره، فقالوا، إن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره .

هذه هي المرة الأولى التي وقعت فيها حادثة شق الصدر ، أما في المرة الثانية : فإن أغلب كتاب السير والمغازي يذكرون أنها كانت قبل الإسراء والمعراج مباشرة ، أي وهو في سن كبير على أننا وجدنا رواية تذكر أنه أعيد شق صدره وهو ابن عشر سنين ، ولهذه الرواية من الشواهد والمتابعات ما ذكر في عدة كتب مما يحسنها ، والواقع : أن هذه الحادثة الثانية تؤكد لنا مبلغ عناية الله سبحانه وتعالى بالرسول صلى الله عليه وسلم ، في جميع مراحل حياته ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان يصدر عنه أي تصرف سوءا قبل البعثة أم بعدها ، إلا وهو محفوف برعاية الله سبحانه وتعالى وعصمته.

روى الإمام أحمد ، وابن حبان ، والحاكم ، وابن عساكر بسندهم عن أبي ابن كعب : أن أبا هريرة رضي الله عنه كان جريئا أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن أشياء لا يسأله عنها غيره قال : يا رسول الله :

ما أول ما رأيت في أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وقال : لقد سألت أبا هريرة .

إني لفي صحراء ابن عشر سنين وأشهر وإذا أنا بكلام فوق رأسي وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ قال نعم، فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلي يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مسا فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه ، فأضجعاني بلا قسر ولا هصر ، وقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع ، فقال له : أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذي أخرج يشبه الفضة ثم نقر إبهام رجلي اليمنى فقال : اغدوا وأسلم ، فرجع بها أغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير .

* * *

حول لقاء الرسول مع بحيرا الراهب

يقول ابن إسحاق[1] : ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجرا إلى الشام فلما تهيأ للرحيل ، وأجمع السير صب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرق له أبو طالب وقال : والله لأخرجن به معي ولا أفارقه ولا يفارقني أبدا.

فخرج به فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرا صنع لهم طعاما كثيرا وذلك أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركب حين أقبل وغمامة تظلله من بين القوم، ثم أرسل إليهم فقال :

---

[1] تذكر الرواية هنا باختصار

إني صنعت لكم طعاما يا معشر قريش فأنا أحب أنا تحضروا كلكم.

فاجتمعوا إليه. وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنه.

فقال بحيرا دعوه فليحضر هذا الغلام معكم ، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظا شديدا، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم ، وتفرقوا قام إليه بحيرا وقال له: يا غلام : أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه ؟ وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع القوم يحلفون بهما فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : لا تسألني باللات والعزي شيئا فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما ، فقال له بحيرا: فا بالله : ألا ما أخبرتني عما أسألك عنه فقال له : سلني ما بدا لك .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله ومن نومه وهيئته وأموره فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر ، فوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته .

ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه موضعه من صفته التي عنده ثم قال بحيرا لأبي طالب : ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.

تعقيبنا على هذه الرواية :

أولا : أن بعض المستشرقين ومن شايعهم من العرب أخذوا من هذه الرواية دليلا على تأثر الرسول صلى الله عليه وسلم بحديث بحيرا الراهب إليه مما دفعه إلى ادعاء النبوة بعد ذلك ، ولو أنه لم يقابله ولم يتأثر بكلامه لما بلغ به طموحه هذا المبلغ ، والبعض الآخر يقول : أن بحيرا الراهب وغيره من رهبان الشام هو الذي لقن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أصول الدين الإسلامي ، وأنه استفاد من علمهم الشئ الكثير.

والرد على هذه الدعاوي يمكن أن يؤخذ من سياق القصة فنقول :

١- أن المقابلة بين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبين بحيرا الراهب كانت لفترة قصيرة لا يمكن أن تسمح للرسول صلى الله عليه وسلم بأخذ التوجيهات الكافية أو التي لها قيمة من بحيرا الراهب وأن أصحابه من قريش كانوا حاضرين.

٢- أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كان في سن صغيرة، فقد استخلفه قومه على متاعهم لصغر سنه ، بل إن بعض كتاب السير يرجح أن سنه في ذلك الوقت كان تسع سنوات ، والبعض الآخر يرجحه بالثانية عشرة فأنى لمثل هذا السن أن يتلقى أمور النبوة العظام ؟ أو يتأثر بكلام الراهب فتحدثه نفسه بالنبوة؟

٣- زعمهم أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كان يأخذ أمور دينه من رحلاته إلى الشام ابتداء من هذه الرحلة وزعم درمنغم أنه مر بمدين وهي بلدة في سيناء وهو في طريقه إلى الشام وأخذ من رجالها العلم يمكن الرد عليه بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يسافر إلى الشام إلا في رحلتين ، أولاهما : وهو صغير السن مع عمه أبي طالب ، والثانية : بعد أن أتم الخامسة والعشرين ، وكان يتاجر في أموال السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها وهذه الرحلة لم يكن له فيها أي لقاء برجال الدين أو غيرهم أما أنه مر بمدين وهو في طريقه إلى الشام : فإن طريق القوافل لم يكن يمر بسيناء ، وهذا واضح للأعين .

ثانيا : تذكر الرواية أن بحيرا الراهب وجد خاتم النبوة بين كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يدعونا لذكر الروايات المتعلقة بهذا الموضوع .

وروى مسلم بسنده عن جابر بن سمرة قال :

(رأيت الخاتم الذي في ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل بيضة الحمام).

وروى مسلم أيضا عن عبد الله بن سرجس قال :

رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وأكلت معه خبزا ولحما- أو قال ثريدا- قال : فقلت : يا رسول الله ، غفر الله لك ، قال : ولك فقلت : أستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ولكم ثم تلا هذه الآية : (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) .

قال : ثم درت خلفه فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه عند نغص كتفه اليسرى جمعا عليه خيلان كأمثال الثاكيل.

ثالثا : قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لبحيرا الراهب :

(لا تسألنني باللات والعزى فوا الله ما أبغضت شيئا قط بغضهما).

يدلنا هذا القول على أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يعمل شيئا من أعمال الجاهلية ، لقد تكفل به الله تعالى وجعله موضع عنايته ، فأبعد عنه أوهام الجاهلية وما شرعته لنفسها من عبادات زعمت أنها من دين إبراهيم عليه السلام.

يقول الإمام ابن الجوزي : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في زمن الصبا يبغض الأصنام ولا يلتفت إليها ، وكان أهله يسألونه أن يخرج معهم إلى ناحيتها فلا يفعل ولا يقرب منها ويعيبها.

ويقول ابن إسحاق : فشب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزها وتكرما.

حتى ما أسمه في قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة".

ومن حفظ الله له في صغره وأمر جاهليته ما رواه البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله قال : لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله

صلى الله عليه وسلم، والعباس ينقلان الحجارة ، قال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم:

(اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة ففعل فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم قام وقال : (إزاري) فستر عليه إزاره) .

على أننا إذا كنا نريد التركيز على اجتناب رسول الله صلى الله عليه وسلم، للأصنام وعبادتها ، فإننا نجد الحافظ جلال الدين السيوطي يفصل لنا القول في ذلك يقول : أخرج ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : حدثتني أم أيمن، قالت : كان بوانه صنما يحضره قريش يوما في السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه وكان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى .. حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن : أنا نخاف عليك ما تصنع من اجتناب آلهتنا وجعلن يقلن: يا محمد ما تريد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا ؟ ولم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوبا فزعا فقلن عماته : ما دهاك ؟

قال : إني أخشى أن يكون بي ألم • فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذي رأيت ؟

قال : إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي:

وراءك يا محمد لا تمسه ، قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى نبئ .

هذا ما كان عن الأصنام والعقيدة فيها ، أما عن شرائع قومه بالنسبة لطريقة العبادة فيقول الإمام السيوطي في الخصائص الكبرى عن الحاكم وأبي نعيم والبيهقي بسندهم عن زيد بن حارثة قال : كان صنم من نحاس يقال له : اساف ونائلة ، يتمسح به المشركون إذا طافوا ، فطاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت معه ، فلما مررت مسحت به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تمسه ،

فقال زيد : فطفت فقلت في نفسي لأمسنه حتى أنظر ما يكون فمسحته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم تنه ؟

قلت زاد غيره عن محمد بن عمرو بإسناده : قال زيد : فو الذي هو أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنما حتى أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه.

وإذا كان لنا أن نختم هذا الموضوع فلن نجد خيرا من تعليق القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني على قوله تعالى :

(ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى).

يقول : فتأمل ما في هذا فإنه صلى الله عليه وسلم ما عرف العز بالأبوين كما يعرف من رباه أبواه ، فإن أباه مات وهو حمل ، وماتت أمه وهو رضيع ، فآواه الله أكرم إيواء ، فلما كمل أتاه النبوة ، وكان أمر الله مفعولا.

* * *

الأمين

تظهر لنا لوائح الهداية ومظاهر الخصوصية في صلى الله عليه وسلم في إطلاق المجتمع القرشي عليه (لقب الأمين) والواقع : أن لقب الأمين هو أصدق تصوير لحالة الرسول صلى الله عليه وسلم، لقد كان منهج حياته كلها ، وأن كثيرا من الناس قد يطرأ على ذهنه - بمجرد سماع لفظ الأمين- الأمانة على الأموال ولكن معناها أوسع بكثير من هذا المعنى القاصر ، أنه فعلا كان أمينا على الأموال، فلم تؤثر عنه خيانة في هذا على الإطلاق ، ولكن المعنى الأوسع للفظ الأمين ـ كما أرده المجتمع القرشي ـ أنه كان أمينا على نفسه فلم يشبه من أقذار الجاهلية شئ ، لقد كان أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأفضلهم جوارا ، ولم يؤثر عنه كذب قط.

يقول ابن هشام بعد أن يذكر فضائل الرسول صلى الله عليه وسلم : (حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة).

وإذا كان لنا أن نذكر مثالا على عناية به الله بحيث أصبح أمينا في نفسه فإننا نقول : ذكر البخاري بسنده عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال :

" ما هممت بشئ من أمر الجاهلية إلا مرتين "

أما هاتان المرتان فإن الإمام ابن كثير رواهما بسنده عن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ــ فيقول :

" ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين ، كلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما : قلت ليلة لبعض فتيان مكة ــ ونحن في رعاء غنم أهلها ــ فقلت لصاحبي : " " ألا تبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان ؟ فقال : بلى

قال : فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة ، فسمعت عزفا بالفرابيل والمزامير ، فقلت : ما هذا

قالوا : تزوج فلان فلانة .

فجلست أنظر ، وضرب الله على أذني فو الله ما أيقظني إلا مس الشمس.

فرجعت إلى صاحبي فقال : ماذا فعلت ؟

فقلت : ما فعلت شيئا ، ثم أخبرته بالذي رأيت.

ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لي غنمي حتى أسمر ففعل ، فدخلت ، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعته تلك الليلة فسألت فقيل : نكح فلان فلانة • فجلست أنظر ، فضرب الله على أذني ، فوالله ، ما أيقظني إلا مس الشمس • فرجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت ؟ فقلت : لا شئ ، ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشئ من ذلك حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته.

* * *

الأمين على غيره

ومن معاني الأمين أنه كان أمينا على غيره فلم يؤثر عنه أنه أضر بغيره على الإطلاق ، لقد كان عطوفا على الناس ، معينا للضعفاء ، أمينا على الحديث فلا كذب ، أمينا على الأسرار فلا يغشيها ، وما كان قول السيدة خديجة رضوان الله عليها له :

(كلا والله ما يخزيك الله أبدا : إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق) إلا توضيحا لمعنى الأمين بالنسبة لغيره.

وإذا كان لنا أن نذكر مثالا على ذلك فإننا نقول : أنه في هذه الفترة كان يتحاكم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

يقول الربيع بن خيثم : كان يتحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية قبل الإسلام ، ثم اختص في الإسلام .

ومن الأمثلة المشهورة على ذلك الاحتكام إليه بشأن الحجر الأسود.

يقول ابن كثير : قال يعقوب بن سفيان : أخبرني اصبغ بن فرج، أخبرني بن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلم جمرت امرأة الكعبة فطارت شرارة من مجمرها في ثياب الكعبة ، فاحترقت فهدموها حتى إذا بنوها فبلغوا موضع الركن اختصمت قريش في الركن: أي القبائل ترفعه .

فقالوا : تعالوا نحكم أول من يطلع علينا فطلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو غلام عليه وشاح ، فحكموه فأمر بالركن فوضع في ثوب ثم أخرج سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب، ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن ، فكان هو يضعه .

فكان لا يزداد على السن الأرضي حتى دعوه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحي فطفقوا لا ينحرون جزورا إلا التمسوه فيدعوا لهم فيها .

* * *

التحنث

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم • فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء .

لقد دلتنا السيدة عائشة رضوان الله عليها على ملامح من حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فبينت أول ما بينت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت له من الرؤى الصالحة قبل نزول الوحي عليه بالرسالة ، فما من رؤيا منها إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وهذا يبين لنا مقدار عناية الله سبحانه وتعالى برسوله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، وأنه كان قريبا منه يحوطه بالتربية الإلهية ويعصمه من الوقوع في مزالق الخطأ ويعطيه من البشارات ما يدل على قرب نبوته مما يظهره عليه من مظاهر الخصوصية صلى الله عليه وسلم ، ويدلنا على ذلك ما رواه الإمام مسلم ، عن أبي بكر بن أبي شيبة حدثنا يحيي بن أبي بكير عن إبراهيم بن طهمان حدثني سماك بن حرب بن سمرة قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث أني لأعرفه الآن).

يقول ابن هشام : قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الملك بن عبيد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي وكان داعية من أهل العلم • أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته وابتدأ بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله .

قال : فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة ، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان.

تدلنا هذه الروايات على أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانت تحدث له أمور خارقة للعادة قبل بعثته ، تدل على مدى العناية الإلهية ، وتقرب منه أمر النبوة وما يحدث فيها من المعجزات وخوارق العادات فإننا في حديث : كيف كان بدء الوحي نرى مدى ما روع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزول الوحي عليه في أول مرة ، فكيف لو لم يتلقى أي بشارات في الرؤى التي تجئ مثل فلق الصبح ، أو رأي خوارق العادات التي تؤهله وتقرب منه أمر المعجزات الإلهية ، وإذا كان بعض الناس ينكرون هذا الأمر، فإننا لا نرى مانعا يمنع حدوثه لشخص هو خاتم النبيين، وما الآيات التي جرت على يد سيدنا عيسى عليه السلام ببعيد ، وقد ذكرت في القرآن فكيف بمن وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه رحمة للعالمين.

يقول الحافظ ابن حجر في تعليقه على الرؤى التي رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بدئ بذلك ليكون تمهيدا وتوطئة لليقظة ، ثم مهد له في اليقظة أيضا رؤية الضوء وسماع الصوت وسلام الحجر).

ثم الأمر الثاني : الذي نأخذه من حديث السيدة عائشة رضوان الله عليها: أنه كان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبد الليالي ذوات العدد لقد كان التحنث نتيجة للرؤى التي تجئ مثل فلق الصبح ، وفي ذلك يقول القسطلاني : فإن قلت أمر الغار قبل الرسالة فلا حكم أجيب بأنه أول ما بدئ به عليه الصلاة والسلام من الوحي الرؤيا الصالحة ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء، كما مر فدل على أن الخلوة حكم مرتب على الوحي ، لأن كلمة ثم للترتيب.

لقد رباه الله سبحانه وتعالى فكان التحنث نتيجة لذلك ، ولم يكن شيئا مألوفا في القوم.

ولكن ماذا كانت طريقة تحنثه معتقده في ذلك ؟

يقول الله تعالى :

(ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين).

يقول الإمام الألوسي في شرحها : وأكثر المفسرين على أن المراد بها هنا أصول الشرائع.

ويقول الطبري : يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أوحينا إليك يا محمد بريئا من الأوثان والأنداد التي يعبدها قومك كما كان إبراهيم تبرأ منها وقلنا لك : اتبع ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة حنيفا : يقول : مسلما على الدين الذي كان عليه إبراهيم .

ويقول الحافظ ابن حجر : قوله فيتحنث هي بمعنى يتحنف أي يتبع الحنيفية.

وقوله حبب : لم يسم فاعله لعدم تحقق الباعث على ذلك ، وإن كان كل من عند الله أو لينبه على أنه لم يكن من بواعث البشر أو يكون ذلك وحي إلهام.

* * *

رد شبه حول القرآن

(وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا).

القائلون هذا القول : هم المشركون من قريش ، وقد ذكرت بعض الروايات أنهم : النضر بن الحرث ، وعبد الله بن أمية ، ونوفل بن خويلد.

ويقصد المشركون بذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم، اختلق القرآن وألفه من عنده وأعانه في ذلك بعض الناس، وهذا الافتراء يشبه من جميع الأوجه افتراء المستشرقين السابق ذكرهم عن لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم ببحيرا الراهب.

وقد رد الله سبحانه وتعالى قولهم هذا بأبلغ رد بقوله سبحانه :

(فقد جاءوا ظلما وزورا).

والواقع أن ظلم المشركين وزورهم ثابت في كثير من الأوجه في هذه الشبهة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر.

١- أن القرآن الكريم بلغ من الإعجاز اللغوي ما يعجز عن الإتيان بمثله بشر بل ويعجز عن الإتيان بعشر سور من مثله ، بل وآية أيضا، فكيف يستطيع رجل أمي أي لم يتعلم ولم يقرأ ولم يكتب أن يختلقه ؟

٢- فإذا كان هذا حال صاحب الشأن نفسه ، فما بالك بمعاونيه وهم من أهل الكتاب ولسانهم أعجمي لا يستطيعون بلوغ جزئية بسيطة من هذا الإعجاز اللغوي ويكفي قوله تعالى :

(لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) .

٣- أنه لم يثبت ثبوتا مؤكدا كون هؤلاء الناس الذين ذكر اسماءهم النضر بن الحرث واخوانه ، هم الذين أعانوا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قال بذلك المشركون يقول الله تعالى : (قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول).

لقد اختلقوا هذه الأسماء وجاءوا ظلما وزورا ، بل إنهم في بعض الأحيان يقولون (إنما يعلمه بشر) ولم يستطيعوا إثبات من هو هذا البشر ؟

٤- إن المكيين المشركين وهم فرسان البلاغة وأمراء البيان لم يستطيعوا الإتيان بأصغر سورة من مثله فكيف يستطيع ذلك بعض الموالي والعبيد من الدهماء في مكة ؟

٥- إن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وقد سبق الحديث عنها تدل دلالة واضحة على كونه صلى الله عليه وسلم، كان صادقا أمينا عندهم ويكفي أنهم لقبوه بالأمين ، وكانوا يحكمونه فيما يشجر بينهم من الخلاف، فكيف لهم بعد ذلك أن يتهموه بأن ما جاء به إفك افتراء وأعانه عليه قوم آخرون ؟ :

(أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون).

٦- إن الذين لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب بعد النبوة كانوا له سائلين ، وكان هو المعلم لهم والشارح والموضح .

٧- إن القرآن الكريم في كثير من آياته يبين الانحراف الذي وصلت إليه اليهودية والمسيحية بما يمنع على - وجه اليقين- أن الرسول صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن من أهل الكتاب نرى ذلك في قوله تعالى :

(يا أهل الكتاب لما تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ؟ أفلا تعقلون).

أم تقولون : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ؟

وقالت اليهود: عزير بن الله، وقالت النصارى: المسيح بن الله

وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه ولقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة .

٨- وبالتأكيد فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لو كان هو الذي افترى القرآن واختلفه - كما يدعي ذلك المشركون- لما ترك المنافقين يدعون كثيرا من الأكاذيب في حديث الإفك ولا تتخذ في ذلك قرارا سريعا ، ليمنع هذه الأقاويل، ومع ذلك مضى عليه شهر بأكمله حتى نزل عليه وحي في ذلك .

٩- في بعض الأحيان كان ينزل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحي يراجعه في بعض المواقف التي كان قد سبق اتخاذها وينهاه عن فعلها.

(عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) .

(وما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم).

فلو كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، هو الذي اختلق القرآن لما عاتب نفسه هذا العتاب ، ولما راجع نفسه مرة أخرى.

١٠- إن القرآن كان ينزل على حسب الوقائع فهل كان الرسول صلى الله عليه وسلم والذين أعانوه كما يدعي ذلك المشركون كانوا يعلمون هذه الوقائع قبل حدوثها فيرتبون لها ؟

١١- كان الوحي يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ببعض الأمور التي يصعب فهمها عليه بعض الشئ ؛ فهل لو كان هو الذي اختلق القرآن كان سيأتي ببعض ما يصعب فهمه كما حدث في قوله تعالى :

(وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) .

وأيضا كما حدث في صلح الحديبية .

(كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا)

واستمر المشركون في لجاجهم وعنادهم فلم يجدوا في القرآن نفسه أي عيب يمكن لهم أن يأخذوه عليه بل انهم لا يستطيعون الإتيان بأصغر سورة من مثله ، فابتدعوا شبهة جديدة هي موجهة إليهم أكثر مما هي موجهة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي قولهم :

(لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة)

تلميحا بذلك إلى أن نزوله مفرقا لا يخلو من شبهة الاختلاق والكذب ، وكان رد الله سبحانه وتعالى عليهم واضحا سهلا صريحا :

(كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا)

إن الرد هنا يرمز إلى أمور تبين لنا سبب نزول القرآن منجما.

السبب الأول : هو تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بنزول القرآن عليه على فترات متتابعة بحيث يحفظ ما ينزل عليه

أولا بأول وجزءا بجزء فيكون بالتالي أدعى لحفظه وتعليمه للناس شيئا فشيئا وقد قال الله سبحانه وتعالى في ذلك :

(لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرآناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه) .

فإن من تكفل الله سبحانه وتعالى بالقرآن وبجمعه أن ينزله على فترات متتابعة ليحفظ في الصدور حفظا كاملا ويكون ذلك أدعى إلى التعلق به ، فالقرآن لم ينزل لفترة معينة ، بل نزل لكل العصور .

السبب الثاني : موالاة الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم فيه تثبيت لفؤاده وتثبيت لعزيمته ، فإن المرء يستأنس بموالاة أصحابه له ، وتأييدهم إياه، فكيف لا يستأنس الرسول صلى الله عليه وسلم بموالاة ربه له .

السبب الثالث : يقول الله تعالى : (ورتل القرآن ترتيلا) وهذا يدل دلالة واضحة على أن الترتيل من عند الله سبحانه وتعالى ، وهذا لا يتوافر إلا بنزول القرآن منجما ، فأنه إذا نزل القرآن جملة واحدة لم يتمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من تعلم ترتيله وتعليم غيره أيضا .

السبب الرابع : أن نزول القرآن منجما يؤدي إلى نزوله على حسب الوقائع فيكون أدعى إلى سهولة حفظه وتقبل التشريع ومعرفة الحكمة منه.

السبب الخامس : التدرج في التشريع ، فإن نزول القرآن جملة واحدة يؤدي إلى فرضية التشريعات الجديدة مرة واحدة ، مما يكون فيه عسر شديد على الناس، ربما بسببه يرفضون الدين الجديد ، فلو لم ينزل تحريم الخمر بالتدريج لكان في ذلك قسوة شديدة على الناس فإن الكثيرين كانوا يدمنونها ويتاجرون فيها.

السبب السادس : ونضيف إلى ما سبق قول الشيخ محمد أبو زهرة : وهناك سبب آخر لنزول القرآن منجما نلمسه من حال العرب ومن شئونهم ، ذلك أن العرب أمة أمية ، والكتابة فيهم ليست رائجة بل يندر فيهم من يعرفها ، وأندر منه من يتقنها ، فما كان في استطاعتهم أن يكتبوا القرآن كله إذا نزل جملة واحدة، إذ يكون

بسوره وآياته عسيرا عليهم أن يكتبوه ، وإن كتبوه لا يعدمون الخطأ والتصحيف ولقد كان من فائدة إنزال القرآن منجما أنه كان ينزل لمناسبات ولأحداث فيكون في هذه الأحداث بعض البيان لأحكامه والمبين الأول هو النبي صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى :

(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)

(وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ورتلناه ترتيلا).

* * *

كان خلقه القرآن

ماذا كانت تريد السيدة عائشة بقولها عن الرسول صلى الله عليه وسلم (وكان خلقه القرآن).

إن الدرجة التي وصل إليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكارم الأخلاق يعبر عنها الله سبحانه وتعالى بقوله :

(وإنك لعلى خلق عظيم)

يقول ابن عباس رضي الله عنهما في معناها :

على دين عظيم ، لا دين أحب إلى الله ولا أرضى عنه منه ، وهو دين الإسلام .

وقال قتادة :

هو ما كان يأتمر به من أوامر الله ، وينتهي عنه مما نهى الله تعالى : والمعنى :

إنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن.

وقال الواسطي :

أثنى عليه بحسن قبوله ، لما أسداه إليه من نعمة وفضله بذلك على غيره، لأنه جبله على ذلك الخلق .

وقال صاحب الشفاء :

أثنى عليه بما منحه من هباته وهداه إليه وأكد ذلك تتميما للتمجيد بحرفي التأكيد ، فقال تعالى :

(وإنك لعلي خلق عظيم)

قيل : القرآن

وقيل : الإسلام

وقيل : الطبع الكريم

وقيل : ليس لك همة إلا الله ١٠هـ

لقد حقق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأكمل صورة قول الله تعالى :

(قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)

لقد تحقق فيه جوهر الرسالة الإسلامية وهو إسلام الوجه لله تعالى ، فكان أول المسلمين.

وإذا كان لنا أن نذكر نموذجا من أخلاقه صلى الله عليه وسلم فإننا نقول:

الرحمة : تعتبر الرحمة من أهم أهداف الرسالة الإسلامية، وقد تمثلت في سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثلا كاملا وما كان قول الله سبحانه وتعالى عنه بدعا من القول عندما خاطبه قائلا :

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

لقد شملت رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كل العوالم التي خلقها سبحانه وتعالى ، ولم تقتصر على الأهل والأصدقاء ، كما هو المعتاد ، بل ولم تقتصر على بني الإنسان فحسب ، بل تعدت رحمته صلوات الله وسلامه عليه إلى الحيوان كذلك .

والله سبحانه وتعالى الذي يصف نفسه بالرحمة في كل شئ كما نرى ذلك في مفتتح كل سورة "بسم الله الرحمن الرحيم " بل وفي مفتتح كل شئ نقول : "بسم الله الرحمن الرحيم".

يقول عن نفسه :(وكان بالمؤمنين رحيما)

والله : (خير الراحمين)

وهو سبحانه : (خير الغافرين)

والله سبحانه وتعالى : (كتب على نفسه الرحمة)

ومن آياته سبحانه وتعالى :(أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)

ويطلب سبحانه وتعالى ألا نقنط من رحمته : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم).

أما إذا قنط الإنسان من رحمة ربه فإنه يكون من الضالين :

(قال : ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون)

فإن الله هو أرحم الراحمين :

(قال : رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين).

إن الله سبحانه وتعالى يصف نفسه بالرحمة في أكمل معانيها، فكان رسوله الذي اختاره ممثلا لهذه الرحمة في أكمل معانيها أيضا.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مخبرا عن نفسه :

(إنما أنا رحمة مهداة)

ويروي الإمام مسلم في صحيحه :

قيل : يا رسول الله . ادع على المشركين

قال : إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة .

والواقع أن الذي يمثل هذه الصفة في سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أصدق تمثيل قول السيدة خديجة رضوان الله عليهما لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ فيما رواه البخاري :

(إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ،وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق) .

لقد كان صلوات الله عليه رحيما بالصغار :

رأى أحد الأعراب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل أسباطه ، فقال : أتقبلون أبناءكم ؟ إن لي عشرة أبناء ما قبلت واحد منهم قط.

فأفهمه صلوات الله وسلامه عليه باستهجان أن الله قد نزع الرحمة من قلبه.

وكان صلوات الله رحمة بالحيوان :

مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على بستان رجل من الأنصار فدخل ، فإذا جمل يئن وتذرف عيناه ، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم ، فمسح عليه ، فسكت ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رب هذا الجمل ؟ فجاء فتى من الأنصار فقال : هذا لي يا رسول الله . فقال له :

(ألا تتقي الله عز وجل في هذه البهيمة التي ملكك الله ؟ أنك تجيعه وتؤذيه) فخجل الأنصاري .

على أنه إذا كانت هذه صفات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة للرحمة في شخصه، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رحمة مهداة للعالمين، كان يحث على الرحمة ويدعوا إليها وما كان قول الله سبحانه وتعالى عنه :

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) .

جزافا من القول ، فإن هديه صلى الله عليه وسلم بالنسبة للرحمة كان مستمرا في كل وقت وحين .

في بعض المرات كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث القوم عن الرحمة ويحث عليها فقال له بعض أصحابه :

إننا نرحم أزواجنا وأولادنا وأهلينا .

ولكن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أن هذا الفهم قاصر عن الصورة التي يريدها فعقب عليهم بقوله : ما هذا أريد إنما أريد الرحمة العامة .

إنه يريد أن تتغلغل الرحمة في كيانهم حتى تصبح طبيعتهم ذاتها ، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى في حديث قدسي :

(اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي فإني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإني جعلت فيهم سخطي).

ويقول صلى الله عليه وسلم :(لا تنزل الرحمة إلا من شقي)
ويقول صلوات الله وسلامه عليه: (الراحمون يرحمهم الرحمن)

* * *

أحاديث للرسول في الرحمة

روى الإمام مسلم ـ رضي الله عنه ـ بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه عن ربه :

إن الله عز وجل يقول يوم القيامة :

يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدني .

قال : يا رب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أن عبدي فلان مرض فلم تعده ؟ .. أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟

يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمني

قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ . أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟

يا ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقني ؟

قال : يا رب ، كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟

قال : استقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي ؟

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من لا يرحم الناس لا يرحمه الله)

وعن أبي ــ رضي الله عنه ــ : أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول :

(لن تؤمنوا حتى تراحموا ، قالوا : يا رسول الله (كلنا رحيم)

قال:(إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة .العامة)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(من لم يرحم الناس لم يرحمه الله)

وعن جرير رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(من لا يرحم من في الأرض ، لا يرحمه من في السماء)

عن ابن عمرو - رضي الله عنهما - قال - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(دخلت امرأة النار في هرة ربطتها ، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض)

وفي رواية :

(عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت ، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض)

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال :

(دنا رجل إلى بئر، فنزل فشرب منها، وعلى البئر كلب يلهث، فرحمه، فنزع إحدى خفيه فسقاه ، فشكر الله له، فأدخله الجنة).

* * *

من صفات الرسول

إننا إذا أردنا أن نتحدث عن صفات الرسول صلى الله عليه وسلم فإننا نجد كتب السيرة مملوءة بأوصافه صلى الله عليه وسلم بل إننا نجد كثير من الكتب تخصصت في خصائصه صلى الله عليه وسلم كالخصائص الكبرى للإمام السيوطي أو الوفا بأحوال المصطفى لأبي الفرج بن الجوزي وغيرهم من الكتب على أننا يمكن أن نورد هنا بعض النصوص التي توجز لنا هذه الخصائص بعض الإيجاز إن لم يفتها الكثير منها ونحن في ذكرنا لهذه النصوص لا نملك فيها إلى الشرح والتوضيح .

النص الأول : في أثناء هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق من مكة إلى المدينة مرورا بخيمة أم معبد الخزاعية وسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن تمر أو لحم يشترونه ، فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك فقد كانت سنة من السنين العجاف ، فقالت لهم : والله لو كان عندنا شئ ما أعوزكم القرئ . فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في ركن الخيمة فقال :

ما هذه الشاة يا أم معبد ؟

قالت : هذه شاة خلفها التعب عن الغنم

فقال صلوات الله وسلامه عليه : هل بها لبن ؟

فقالت : هي أجهد من ذلك

قال : أتأذنين أن أحلبها

قالت : نعم بأبي أنت وأمي ، إن رأيت بها حلبا .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة فمسح ضرعها ، وذكر اسم الله وقال :

(اللهم بارك لها في شاتها)

فامتلأ ضرع الشاة ودر لبنها ، فدعا بإناء لها كبير ، فحلب فيه حتى ملأه، فسقى أم معبد فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا وشرب صلى الله عليه وسلم آخرهم وقال: (ساقي القوم آخرهم) فشربوا جميعا مرة بعد مرة .

ثم حلب فيه ثانية عودا على بدء ، فغادروه عندها وارتحلوا عنها.

فما لبث أن جاء زوجها يسوق أعنزا عجافا هزلى ، فلما رأى اللبن عجب واستغرب وقال :

من أين لكم هذا ولا حلوبة في البيت ؟

قالت : لا والله ، إلا أنه مر بنا رجل مبارك : كان من حديثه كيت وكيت .

قال : والله إني لأراه صاحب قريش الذي يطلب صفيه لي يا أم معبد !

قالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، متبلج (مشرق) الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة (ضخامة البطن) ولم تزبه صعلة) لم يشنه صغر الرأس) وسيم قسيم ، في عينيه دعج ، وفي أشفاره وطف (طويل شعر الأجفان) وفي صوته صحل (رخيم الصوت) أحور أكحل، أزج أقرن، شديد سواد الشعر، في عنقه سطح ، (ارتفاع وطول) وفي لحيته كثافة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكان منطقه خرزات نظم يتحدرن حلو المنطق فصل لا نزر ولا هذر (لاعي فيه ولا ثرثرة في كلامه) أجهر الناس وأجملهم من بعيد، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، ربعة (وسط بين الطول والقصر) لا تشنؤه (لا تبغضه) من طول ولا تقتحمه عين (لا تحتقره) من قصر ؟ غصن بين غصنين، أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يحفون به : إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود (يسرع أصحابه إلى طاعته) محشود (يحتشد الناس حوله) لا عابث ولا مفند (غير مخرف في الكلام).

قال أبو معبد :

هذا والله ، صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر ، ولو كنت وافقته يا أم معبد ، لتلمست أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت لذلك سبيلا .

النص الثاني : وهذا النص نأخذه من حديث هرقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء هرقل كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام هو وقومه فقرأ الكتاب وبعد ذلك أحب أن يكون صورة صحيحة عن الرسول فبعث إلى أعراب من مكة يعرفون محمدا كانوا موجودين بمدينته فأمر بإحضارهم وكان فيهم أبو سفيان وسألهم هرقل عدة أسئلة ثم بعد أن فرغ من أسئلة قال على مشهد من الحاضرين :

سألتك عن نسبه : فذكرت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

وسألتك " هل قال أحد منكم هذا القول ؟

فذكرت أن : لا

فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت : رجل يأتسي بقول قيل قبله.

فذكرت أن : لا

قلت : لو كان من آبائه من ملك ، قلت : رجل يطلب ملك أبيه– وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

فذكرت أن : لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله!

وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم :

فذكرت : أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟

فذكرت : أنهم يزيدون .

وكذلك أمر الإيمان حتى يتم

وسألتك : أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

فذكرت أن : لا

وكذلك أمر الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب

وسألتك : هل يغدر

فذكرت أن : لا

وكذلك الرسل لا تغدر

وسألتك : بم يأمركم ؟

فذكرت : أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا بـــه شـــيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق ، والعفاف، فإن كان ما تقوله حقا، فسيملك موضع قدمي هاتين .

وقد كنت أعلم أنه خارج .. لم أكن أظن أنه منكم • فلو أنـــي أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه . ولو كنت عنده لغلســت عــن قدميه .

النص الثالث : بعد موت رسول الله صلى الله عليه ولم ،سمع سيدنا عمر يبكي ويقول :

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد بلغ من فضيلتك عنده ، أن جعل طاعتك طاعته ، فقال عز وجل :

(من يطع الرسول فقد أطاع الله)

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن بعثك آخر الأنبياء ، وذكرك في أولهم ، فقال عز وجل :

(وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم)

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده ، أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون •

(يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول)

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرا تتفجر منه الأنهار ، فماذا ؟ بأعجب من أصابعك حين نبع الماء منها.

(عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : عطش الناس يوم الحديبية والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة ، فتوضأ فجهش الناس ، فأسرعوا وتكاثروا نحوه ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك • فوضع يده في الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا) قلت كم كنتم ؟

قال : لو كنا مائة ألف لكفانا !! كنا خمس عشرة مائة)

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، فما بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة ، ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لئن كان عيسى بن مريم قد أعطاه الله إحياء الموتي فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهي مشوية فقالت لك الذراع: لا تأكلني فإني مسمومة .

يروي ابن سعد في طبقاته عن أبي سلمة قال :

(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يأكل الصدقة ، ويأكل الهدية ، فأهدت إليه يهدوية شاة مصلية (مشوية) فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها هو وأصحابه ، فقالت : إني مسمومة ، فقال لأصحابه : ارفعوا أيديكم ، فإنها قد أخبرت أنها مسمومة .

قال : فرفعوا أيديهم ، قال ، فمات بشر بن البراء فأرسل إليها الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : ما حملك على ما صنعت ؟

فقالت : أردت أن أعلم إن كنت نبيا لم يضرك وإن كنت ملكا أرحت الناس منك قال : فأمر بها فقتلت)

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد دعا نوح على قومه فقال :

(رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا)

ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا كلنا ، فلقد وطئ ظهرك ، أدمى وجهك وكسرت رباعيتك ، فأبيت أن تقول إلا خيرا فقلت :

(اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد اتبعك في قلة سنك ، وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا في كثر سنه وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لو لم تجالس إلا كفئا لك ما جالستنا ولو لم تنكح إلا كفئا لك ما نكحت إلينا . ولو لم تواكل إلا كفئا لك ما آكلتنا .

فقد والله وجالستنا ونكحت إلينا ، وآكلتنا ، ولبست الصوف ، وركبت الحمار ، وأردفت خلفك ووضعك طعامك على الأرض تواضعا منك صلى الله عليك وسلم .

* * *

درجة رسول الله في الآخرة

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم رضي الله عنهما بسندهما ـ قال :

(أنا سيد الناس يوم القيامة-هل تدرون مم ذاك ؟! يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فينظرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ويحتملون فيقول الناس : ألا ترون ما أنتم فيه الام بلغكم ؟! ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟! فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم ، فيأتونه فيقولون يا آدم : أنت أبو البشر : خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، أمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟! ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فقال : إن ربي غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي نفسي. نفسي . اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى

الأرض. وقد سماك الله عبدا شكورا ألا ترى ما نحن فيه ؟ ! ألا ترى ما بلغنا ؟ ! ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول : إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي نفسي. نفسي. نفسي، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى إبراهيم فيقولن : يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإني كذبت ثلاث كذبات ، نفسي • نفسي • نفسي، اذهبوا إلى غيري • اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى فيقولون : يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد قتلت نفسا لم اؤمر بقتلها، نفسي . نفسي. نفسي، اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى عيسى، فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد ، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبا ، نفسي. نفسي . نفسي، اذهبوا إلى غيري إذهبوا إلى محمد صلى الله عليه ولم. وفي رواية : (فيأتوني فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك • ألا ترى ما نحن فيه ؟ فأنطلق فآتي تحت العرش • فأقع ساجدا لربي، ثم يفتح الله على من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي . ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول: أمتي يارب ، أمتي يا رب ، أمتي يا رب ؛ فيقال : يا محمد ادخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال : والذي نفسي بيده ، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ... كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى.

وهذا العدد الجديد من حولية كلية أصول الدين بالقاهرة- جامعة الأزهر يقوم على منهج أصيل في البحوث التي يقدمها إنه منهج السلف الصالح في العقيدة والتشريع ، والأخلاق إنه يقدم الإسلام في مصادره المعتمدة والسليمة والتي ليس فيها أي خلط ، أو انحراف ونحب بهذه المناسبة أن نلفت نظر السادة الأساتذة الأجلاء الذين يتقدمون ببحوثهم للنشر في الأعداد القادمة **مراعاة القواعد التالية :**

١- ألا يكون البحث منشورا من قبل على أي صورة من صور النشر ، ولا مرسلا إلى جهة أخرى ويعد إرساله إلى المجلة تعهدا بذلك ، وفي حال قبوله للنشر في المجلة لا يسمح للباحث بنشره في مكان آخر إلا بعد مرور سنة كاملة على تاريخ نشره فيها .

٢- ألا يكون مستلا من بحث أو رسالة نال بها الباحث درجة علمية.

٣- ألا يتجاوز ستين صفحة.

٤- أن يكون متسما بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه ومصادره ، متوافقا مع عنوانه ، بعيدا عن الحشو، سليم اللغة ، دقيق التوثيق والتخريج ، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة ، وضبط المشكل، وأن يراعى فيه سائر المعايير العلمية .

٥- أن يكون العزو إلى صفحات المصادر في الحاشية لا في الصلب .

٦- أن ترقم حواشي كل صفحة على حدة.

٧- أن يقدم اسم الكتاب على اسم مؤلفه عند توثيق النصوص في الحواشي، وكذلك في ثبت المصادر والمراجع.

٨- ألا يشار في الحواشي إلى المعلومات المتعلقة بطبعة الكتاب ، المحال إليه، إلا في حال اعتماد الباحث أكثر من طبعة للكتاب الواحد.

٩- أن يراعى الابتداء بالتاريخ الهجري في كل ما يؤرخ .

١٠- أن تكتب الأعلام الأجنبية أولا بحروف عربية ، ثم باللاتينية لمن أراد.

١١- أن تثبت المصادر والمراجع مستوفاة في آخر البحث مرتبة على حروف المعجم.

١٢- أن توضح النماذج المخطوطة والصور التوضيحية في المكان المناسب.

١٣- أن يقدم الباحث تعريفا ببحثه محررا تام التحرير في نحو مائة كلمة ، ويفضل ترجمته إلى الإنجليزية .

١٤- أن يرفق البحث بسيرة ذاتية للباحث .

١٥- أن يكون البحث مطبوعا ، أو مكتوبا بخط واضح ومصححا تصحيحا كاملا، وترسل النسخة الأصلية للمجلة .

١٦- لا تعاد البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر .

١٧- يشعر أصحاب البحوث الواردة بوصولها إلى المجلة.

١٨- يخضع ترتيب البحوث وتنسيقها في المجلة لاعتبارات فنية.

هذا وبالله التوفيق،

* * *

عميد الكليـــة

أ.د/ منيع عبد الحليم محمود

عميد كلية أصول الدين- القاهـــرة

فهرس